المحاضرة الثالثة

النقد الإنطباعي: مفهومه ومجالاته ونماذج من نصوصه:

لا شك أن النقد هو فن دراسة العمل الأدبي لمعرفة جيده من رديئة وذلك بتحليله وتفسيره وتقدير قيمته الفنية.، و قد ظهر عند العرب منذ العصر الجاهلي ، ولكنه كان يدور في فلك " الإنطباعية الخالصة والأحكام الجزئية التي تعتمد المفاضلة بين بيت وبيت أو تمييز البيت المفرد أو إرسال حكم عام في الترجيح بين شاعر وشاعر" .

وعليه فالنقد الإنطباعي أو التأثري كان في المراحل المبكرة للنقد العربي، ويعد من أقدم أنواع النقد ، وهو النقد الذي تتحكم فيه الدوافع الذاتية ، أي إصدارحكم نقدي على ما يسمعه السامع، فيطرب له ويؤثر فيه ، فيكون مرده إلى ما يتركه هذا الكلام من تأثير في النفس و الأحاسيس و العواطف ، فيبدي رأيه في ما سمع بشكل إنفعالي تأثري ، دون تقديم برهان أوتفسير.

وقد وجد هذا النوع من النقد البسيط في العصر الجاهلي ، ولكنه كان يتلاءم مع طبيعة قول الشعر آنذاك ، فالشعر في الجاهلية كان مبعثه الإحساس والعواطف ، وكذلك جاء النقد قائما على الانفعال والإحساس و التأثر "فالعربي حساس رقيق الحس ، تنال الكلمة الطيبة من نفسه، ويهتاج لها اهتياجا ، فإذا حكم على الأدب ، حكم عليه تبعا لتأثره به ، وبه ،وبمقدار ذلك التاثر ، هو يحكم على الأدب ببلاغة الأدب ، ويحكم عليه بالنظرة العجلى ، والاثر السريع ".

مفهوم النقد الإنطباعي:

هو نقد يصدر من شخص تحت تأثير الإنطباعات الأولية السريعة الذوقية أو المزاج الخاص الفردي ،ولم يصدر عن تفكير عميق وتأمل ودراسة معمقة ، كما يكون هذا النقد أحكاما جزئية عامة سريعة غير معللة ، يصف فيها الناقد النص ولا يبين الأسباب التي دفعته إلى ذلك.

ويتميز هذا النوع من النقد بالسذاجة والبساطة والمبالغة في إصدار الأحكام ، لأنه مبني على الانفعال والتأثر والنظرة العجلى ، ولم يبن على قواعد وأسس علمية صحيحة اتفق عليها العلماء.

هذا والمتتبع للنصوص النقدية العربية منذ النشأة يراها " بسيطة ، حيث كان الناقد يعتمد على ذوقه وانطباعه الفطري ، يوجه نقده للشعر في كلمة أو جملة تجاه بيت أو عدة أبيات كانت قد تركت في نفسه أثرا معينا ،لأن الإنطباع البسيط فطري في الإنسان" .

كما نجد هذا النوع من النقد يتجسد في عبارات كثرت في ذلك العصر (بداية النقد) كأن يقول الناقد: هذا أشعر بيت، هذه أجمل قصيدة ، أشعر الجن والإنس... وغيرها.

نماذج من نصوصه :

أ- نماذج نقدية من العصر الجاهلي :

كانت أسواق العرب في الجاهلية وكثرة المجالس الأدبية التي يتذاكرون فيها الشعر، من أهم عوامل نشأة وتطور النقد في العصر الجاهلي ، قد كان ينقد بعضهم بعضا ،وصارت هذه الأحكام فيما بعد نواة للنقد العربي القديم ، ومن أشهر هذه الأسواق" سوق عكاظ " الذي يجعلها ميدانا ملائما كل الملائمة للنشاط النقدي سواء ما يتولاه الجمهور الأدبي أم ما تتولاه بعض الشخصيات الأدبية البارزة ، وفيه يجتمع الشعراء من قبائل عدة فينشرون ما لديهم من شعر، يتلقاه المستمعون بالتعليق والنقد ، ويفد إلى هذه الأسواق علماء بالشعر يتحاكم إليهم الشعراء بجودة قصائدهم ،ومن بينهم النابغة الذبياني الذي كان من أرهف شعراء زمانه ذوقا و أوسعهم أفقا ، إذ كانت تضرب له قبة حمراء من أدم يجلس فيها للحكم بين الشعراء ، والمفاضلة بين أشعارهم ، وقد احتفظت لنا كتب الأدب و النقد من أحكامه النقدية ، ما يمنحنا صورة واضحة عن طبيعة تلك الآراء النقدية في هذا العصر ، وتذكر إحدى الروايات أن الأعشى ميمون بن قيس أنشده طويلته التي أولها :

ما بُكاءُ الكَبيرِ بِالأَطلالِ وَسُؤالي فَهَل تَرُدُّ سُؤالي

ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري :

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضّحى وأسيافنا يقطرنَ من نجدةٍ دما

وَلدْنا بَني العنْقاءِ وابنيْ مُحرِّقٍ فأكرمْ بنا خالاً وأكرمْ بنا ابنما

فقال له النابغة : " إنك شاعر ، لكننك أقللت جفانك و أسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن أنجبك "، فقد عاب عليه استخدام "جفنات" و " أسياف" ، لأنها تفيد القلة ، و الكثير منها يقال له "جفان" و "سيوف " ، وعاب عليه استعمال" الضحى" وكان الأبلغ أن يقول" الدجى" لأن الضيف أكثر ما يكون طروقا بالليل ، كما عاب عليه افتخاره بمن أنجب وليس بمن أنجبوه . وقد قيل إن الخنساء أنشدته في هذا المجلس قصيدتها في رثاء أخيها صخر:

قَذىً بِعَينِكِ أَم بِالعَينِ عُوّار أَم ذَرَفَت إِذ خَلَت مِن أَهلِها الدارُ

فقال لها النابغة : " والله لولا أبا بصير أنشدني آنفا لقلت : أنك أشعر الجن والإنس ، فنرى غضب حسان بن ثابت من تفضيل النابغة للأعشى على سائر الشعراء بما فيهم حسان بن ثابت ، فيقول للنابغة : أنا أشعر منك ومن أبيك ، فيرد عليه النابغة : يابن أخي إنك لا تحسن أن تقول :

فإنّكَ كاللّيلِ الذي هو مُدْرِكي وإنْ خِلْتُ أنّ المُنتأى عنك واسِعِ

فحسن حسان لقوله .

والذي يبدو جليا أنها أحكام انطباعية تتسم بالتعميم ، وبهذا كان التراث النقدي المنسوب إلى العصر الجاهلي يتجه إلى الصياغة والفكرة معا .

ولم يكن الشعر عند النقاد الجاهليين صياغة وفكرة فقط ، بل كان أيضا نظما محكما أو غير محكم ، ومعنى مقبولا أو غير مقبول ، ودار حول الأخطاء اللغوية الجزئية ، ومن هذا

القبيل نقد طرفة بن العبد للمسيب بن علس أو للمتلمس على خلاف في القائل عندما سمعه يقول :

وَقَد أَتَناسى الهَمَّ عِندَ اِحتِضارِهِ بِناجٍ عَلَيهِ الصَيعَرِيَّةُ مُكدَمِ

فقال طرفة بن العبد وهو صبي يلعب مع الصبية : استنوق الجمل ، وضحك منه ، فقال المسيب : يا غلام اذهب إلى أمك بؤيدة ... أي داهية من أنت ؟قال طرفة بن العبد : طرفة بن العبد ، قال المسيب بن علس : ما أشبه الليلة بالبارحة ! يريد ما أشبه بعضكم في الشعر ببعض . وسخرية طرفة من الشاعر لأن الصيعرية سمة الإناث لا الفحول ، والشاعر أخطا في إطلاق صفة الإناث على الذكور من الإبل .

ومن ذلك أيضا الأحكام التي أطلقها ربيعة بن حذار الأسدي على شعر كل من الزبرقان وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي حيث قال: " أما أنت، يقصد الزبرقان فشعرك كلحم أسخن، لا هو أنضج فأكل ولا هو ترك نيئًا فينتفع به، وأما أنت يا عمرو فشعرك كبرود حبر ، يتلالأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر، وأما أنت يا مخبل فشعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر"، وهذا النمط من النقد يعتمد على الذوق و الإنطباع الذاتي دون استقراء أو تحليل لشعر الشعراء ، ويتضح في هذا الحكم النقدي سطوة الذائقة النقدية حيث لا أسس يستند عليها الناقد ولا مبادئ علمية تُفسّر سبب هذا الحكم، كما أنّ الشعراء كانوا يتلقون تلك الأحكام النقدية دون مراجعتها ومتابعتها وكأنّهم يدركون بالفعل مردّها لحكم الذوق الشخصي.

ومن أوائل الأخبار التي رويت عن النقد البلاغي في العصر الجاهلي حكومة أم جندب الطّائية بين امرئ القيس (توفي نحو 544م) وعلقَمة بن عَبَدة الفحل (ت 603م) ،فقد رُوي أنَّ امرأ القيس لما كان عند بني طَئ زوَّجوه منهم أم جندب وبقي عندهم ما شاء الله ، وجَاءهُ يوما علقمة بن عبدة التَّميمي وهُو قاعدٌ في خيمته ، وخلفهُ أم جندب فتذاكرَا الشعر ، فقالَ امرؤ القيس : أنَا أشعرُ منك، وقال علقمة : بل أنَا أشعر منك ، فاحتكما إلى أم جندب

زوجة امرئ القيس في أيهما أشعر، فطلبت منهما أن يقولا شعرا على روي واحد ، وقافية واحدة يصفان فيه الخيل، فأنشداهاجميعا،فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خَليلَىَّ مُرَّا بِى عَلى أُمّ جُنْدَبِ   نُقضِّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

ثم قال علقمة :

ذَهبتَ منَ الهُجرانِ فِي غَيرِ مَذهَبٍ   وَلـم يـكُ حـقّاً كلّ هَذا التَّجَنّب

واستطردَ كلٌّ منهمَا في وصف ناقته وفرسه ، فلما انتهيا تحاكما إليها فحكمت لعلقمة بالجودة والسبق، فقال لها امرؤ القيس : بم فضلت شعره علي شعري ؟ قالت : لأن فرس ابن عبدة أجود من فرسك! قال : وبماذا ؟

قالت : إنك زجرت ، وضربت بسوطك.

وهي تعني قوله في وصف فرسه:

فللساق ألهوب وللسوط درة   وللزجر منه وقع أخرج مهذب

أما علقمة فقال:

فأدركهن ثانيا من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب

ففرسه أجود من فرسك ؛ لأنه قد أدرك الخيل ثانيا من عنانه من غير أن يضربه بسوط أو يحرك ساقيه ، فقال امرؤ القيس : ما هو بأشعر مني ، ولكنك له وامق ، فطلقها فخلف عليها علقمة ؛ فسمي بذلك الفحل .

هذه القصة من أوائل ما روي من الصور النقدية في العصر الجاهلي بيد أنها لا يمكن أن تدلنا علي النشأة الأولي لهذا الذوق البلاغي – الذي كان سائدا آنذاك – ، لأن هذا الحكم الذي أصدرته أم جندب قد تجاوز مرحلة الذوق الفطري غير المعلل ، فقد عللت أم جندب لحكمها وبينت لماذا فضّلت شعر علقمة علي شعر امرئ القيس، وهذا النقد المعلل ألقى ظلا من الشك على صحة هذه القصة لقربها من صنيع المتأخرين في النقد والموازنة. وبعدها عن النقد الجاهلي المبني على الذوق الفطري الخالي من التعليل .

ولكنَّنا مع ذلك لا نستبعد صُدور مثل هذا النقد عن عربية جاهلية ؛ لأنَّ الحياةَ الأدبية في عصرِ امرئ القيس لم تكن من البساطة إلى حدّ عدم القدرة على إدارك مثل هذه الملاحظات النَّقدية.

ونستشف من هذا الحكم مدى الاعتماد على الذوق والإحساس ، فأم جندب وقفت في حكمها عند جزئية واحدة من القصيدة ولم تتجاوزها ، وهذا يتفق مع طبيعة النقد في ذلك العصر ، كما يجب أن لا يغيب عنا أن الشعر العربي في العصر الجاهلي قد خطا خطوات كبيرة في مجال التطور إذ قصدت القصائد وثبتت الأوزان ، و أحكم البناء الشعري ، بينما كان النقد مازال يحبو و يسير وئيدا .

هذه الشواهد تدل على وجود صور من النقد الأدبي في العصر الجاهلي ، على أن هناك ما لعله أعمق في تلك الشواهد ، و أبلغ في الدلالة على وجود هذا النقد ، وعلى هذا فما كان النقد الجاهلي أكثر من مآخذ يفاض إليها الشعراء في الشعر ،وما كان اكثر من ملحوظات يلحظها بعضهم على بعض ، وما كان له من الأصل إلا سليقتهم ، وما طبعوا عليه ، كذلك كان النقد قريبا من بعض الأغراض الشعرية في الروح ، فهو كالهجاء حين يعيب ، وكالمذيع حين يثني ، ثم هو بعد ذلك كله عربي النشأة كالشعر لم يتأثر بمؤثرات أجنبية ، ولم يقم إلا على الذوق العربي السليم .

خصائص النقد في العصر الجاهلي :

1- الذاتية : المقصود بها البعد عن الموضوعية ، وناثر الناقد بعوامل خارجة عن النص الأدبي ، وللتدليل على هذه الميزة والسمة نستشهد بنموذج أم جندب ، فقد اتهم امرؤ القيس زوجته بعدم الموضوعية ، و أن حكمها إنما اصدرته لصالح علقمة لتعلقها به وحبها له ، لا لشرعيته و قوة أدبه ،و لعل في زواجها به بعد هذه الحكومة – إن صحت الرواية – ما يقوي الشكوك و ظن امرئ القيس ، وإن أحسنا الظن بالمراة تحت رحمة زوجها في الجاهلية ، فطبيعي أن تخشى على نفسها ممن يعامل ناقته أو فرسه تلك المعاملة .

2- الجزئية : لم يكن النقد يتتبع النص الأدبي كله ، فيبحث في جميع مناحيه ، ويدقق في كل أجزائه و جوانبه ، بل اقتصر على مقابلة بيتين من القصيدتين لا غير .

3- عدم التعليل : أي ان الناقد الجاهلي كان يصدر أحكامه بالاستحسان أو الاستهجان دون أن يلزم نفسه تعليل هذه الأحكام ، وبيان وجه استحسانه أو استهجانه للنص الأدبي ، و لعل من أبرز الأمثلة على ذلك حكومة ربيعة بن حذار الأسدي بين الشعراء الأربعة ، ومنه

مفاضلاتهم وتصنيفاتهم للشعر والشعراء ، وتقديمهم لبعضهم على بعض دون بيان لعلة أو لسبب .

4- الإيجاز : ويتضح ذلك من نقد طرفة بن العبد لشعر المتلمس حينما قال : "استنوق الجمل" ، فهذه عبارة موجزة حملت حكما نقديا عيب به طرفة على شعر المتلمس الذي وصف الجمل بسمة الناقة .

5- تحكم العرف : أي أن العرف والذوق العام ، هو المعلم الرئيسي في النقد الجاهلي ، فكل ما وافق العرف هو حسن ، وكل ما خالفه فهو قبيح ، وكما يقول زهير : " ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا " ، فالشاعر مقيد بأسلوب يتبعه و يقلده .

6- النقد الفطري : وفيه يعتمد على ذوق الشاعر و سلامة سليقته ، حيث لم تكن للنقد أصول معروفة ولا مقاييس مقررة ، بل كان مجرد لمحات ذوقية ونظرات شخصية .

7- تأثير العصبية القبلية : لا شك أن الجو العام الذي كان يسود البيئة العربية و يعمها، سيؤثر حتما في النقد الأدبي ، ولعل أهم ظاهرة اتسم بها هذا العصر هي العصبية القبلية وما صاحبها من تفاخر وتنافر ، ولهذا قال ابن سلام الجمحي :" إن القبائل قد قالت بأهوائها " .

من هنا نستطيع القول أن النقد في العصر الجاهلي ، نشأ بسيطا جزئيا ، غلبت عليه الروح الذاتية .

ثانيا – نماذج نقدية من عصر صدر الإسلام :

أخذ النقد في القرن الأول الهجري يسير في طريق النضوج والوضوح مع الفطرة الخالصة، والذوق السليم ، وكان كثير من الخلفاء والصحابة نقادا بفطرتهم وذوقهم ، فبمجيء الإسلام تغيرت قيم الأشياء و الأخلاق فارتقت قيم وانخفضت أخرى ، و أصبحت مقومات الحياة عند العرب غير الأمس ، فالشعر عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، كلام من جنس العرب يتميز بالتأليف أي النظم ، كما يماثل بالجزالة و قوة الألفاظ ، أما ميزان الشعر عنده في مدى مطابقته للحق ، فأحسن الشعر و أطيبه ما يدعو إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، أما الشعر الذي يولد الضغائن فلا خير فيه ، وما من شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استمد ميزانه من تعاليم الإسلام ،فالحق و الصدق لا الكذب هو مقياس الشعر ، ومعنى هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يرمي من خلال ذلك إلى التخلي عن القيم الجاهلية ، وتعويضها بالروح الإسلامية ، ويبدو أن حسان بن ثابت كان أول من تأثر برأي الرسول صلى الله عليه وسلم.

وَإِنَّ أَشعَرَ بَيتٍ أَنتَ قائِلُهُ بَيتٌ يُقالَ إِذا أَنشَدتَهُ صَدَقا

تواصلت مسيرة النقد في صدر الإسلام وفي زمن البعثة المحمدية ، وكان ذلك بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة والخلفاء الراشدين ، الذين استحسنوا منه ما كان حسنا واستهجنوا ماكان مستهجنا ، ووجهوا وهذبوا وصححوا وعدلوا وبدلوا ، فكانت لهم إسهامات نابعة من مراعاة موضوعات الشعر ومدى رقيه في معالجة القضايا ، فما كان منه يصب في خدمة الدين ونشره وبيان فضائله ، وماكان كان منه معالجا لموضوعات اجتماعية وإنسانية متصلة بتعاليم الدين ، كل ما كان كذلك أقروه وشجعوه وخثوا عليه و أثنوا على أصحابه ، وما كان يعوزه التهذيب هذبوه ، وما كان بعيدا عن تعاليم الإسلام وعن القيم العالية ردوه.

إن النقد الأدبي الذي شهده العصر الجاهلي ، ظل مستمرا في عهد البعثة الإسلامية ، وان العرب لم يكفوا عن النظر في الشعر ، و المفاضلة بين الشعراء ، ومع ذلك فهناك شيء جديد في النقد في هذه الفترة ، وهو ما ميزه عن النقد الجاهلي ، والذي يتمثل في عدول

النبي صلى الله عليه وسلم بالشعر عن طريق الجاهلية بكل قيمه ، و الاتجاه به اتجاها إسلاميا يكون مقياس الحكم فيه على العمل الأدبي بمقدار مطابقته أو عدم مطابقته للحق.

وقد سار الخلفاء الراشدون على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى منواله ، كما تعد فترتهم امتدادا طبيعيا لفترة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنا هنا حث الخلفاء المسلمين على حفظ القرآن الكريم ، ورواية الشعر ما طابق الحق ، فحالة الشعر في عصر الراشدين لم تكن أحسن مما وجدت في عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ذلك أنهم لم يشجعوا كثيرا على النظم ، حتى يبعث الشعر ويتطور ، أما المحاولات النقدية في هذه الفترة فقد ظهرت في مواقف الخلفاء الراشدين أنفسهم من الشعر والشعراء وآرائهم في ذلك ، ويلاحظ أن النقد في هذه الفترة ظل في مجمله فطريا لا يعدو مآخذ وملحوظات ، وإن استثنينا عمر بن الخطاب رصي الله عنه، فإننا لا نجد عند بقية الخلفاء آراء يصح أن نلمح فيها طابعا نقديا معينا ، فجل الأخبار التي احتفظت لنا بها كتبنا الأدبية القديمة ، إنما تعكس الاتجاه الإسلامي بوقوفها عند الجوانب الأخلاقية ، واحتفالها باستخلاص العبر، ودعم السلوكات الفاضلة ، فها هو أبو بكر رضي الله عنه يقدم النابغة ويقول : " **هو أحسنهم شعرا ، و أعذبهم بحرا ، وأبعدهم قعرا**" ، فالخليفة الأول لم يكن ذا صلة قوية بالشعر ، حتى عرفت قريش ذلك ، فلما بلغهم هجاء حسان بن ثابت ولم يكونوا قد علموا أنه قوله جعلوا يقولون : "لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا " ، و أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد روى صاحب الأغاني أنه أنشد بيت زهير :

وَمَهما تَكُن عِندَ اِمرِئٍ مِن خَليقَةٍ وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تعلم

قال : **أحسن زهير وصدق ، لو أن رجلا دخل بيتا في جوف بيته ، لتحدث به الناس** ، ثم قال : وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : "**لا تعمل عملا تكره أن يتحدث عنك به** ".

أما الخليفة على بن أبي طالب رضي الله عنه ، فلم ينقل الرواة عنه إلا هذه القصة حينما انتقل إلى مدائن كسرى ، فتمثل أحد الواقفين معه بقول الأسود بن يعفر :

جَرت الرياحُ على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعادِ

فقال له علي رضي الله عنه : **لم لا تقل كما قال الله عز وجل : (كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ). ثم قال : " إن هؤلاء كفروا النعمة "** .

كذلك كان يقدم امرئ القيس على بقية الشعراء ، لأنه أحسنهم نادرة ، و أسبقهم بادرة.

عند تتبعنا للنقد في عصر الخلفاء الراشدين ، وجدنا أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أكثرهم تأثيرا فيه ، إذ يمكن القول بأنه ناقد مهم في ذلك العصر ، ومما روى ابن رشيق : " كان عمر رضي الله عنه عالما بالشعر قليل التعرض لأهله " ، "وكان على دراية وخبرة عميقة باللغة ، ومعرفة دقيقة بأسرارها ، وكان من أنقد أهل زمانه للشعر و أنفذهم فيه معرفة " ، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه : قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنشدني لأشعر شعرائكم ، قلت : ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال الذي يقول :

وَلَوْ أَنَّ حَمْدَاً يُخْلِدُ النَّاسَ أُخْلِدُوا وَلَكِنَّ حَمْدَ النَّاسِ ليس بمخلد

قلت : ذاك زهير ، فقال : فذاك شاعر الشعراء ، قلت : وبم كان شاعر الشعراء : قال : لأنه لا يعاضل في الكلام ، ولا يتبع وحشي الشعراء ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه .

نلاحظ أن عمر في حكمه النقدي هذا قد انتهج التعليل والتبرير، وسطر معايير لهذا الحكم:

- خلو الشعر من التعقيد والغموض .
- الابتعاد عن الوحشي والغريب .
- معيار الصدق وعدم الكذب

فقد كان يفضل الشعر الذي يحوي القيم الأخلاقية والقيمة الأدبية، و الذي يجمع بين الحذق في الصناعة الشعرية، والصدق في القول والوصف، ولذا فإنه لم يكن يحب شعر

الهجاء والمفاخرات والمناقضات والغزل الحسي، مما ينم عن فطنته وثقافته وطبعه وحبه الشديد للشعر وتذوقه.

والواقع أن عمر ظل في إسلامه كما في جاهليته ، حفيا بالشعر شديد الشغف به ، بل ظل كذلك بعد اضطلاعه بأعباء الخلافة ، واشتغاله بمهامه التي لا تدع له من وقته فراغا لغيره ، فكان يتمثل بالشعر ويرويه ، ويستنشده من أصحابه وحفاظه ، ويستقبل الوفود ويخوص معهم في الحديث عن شعرهم و شعرائهم.

خصائص النقد في عصر صدر الإسلام :

– كان النقد امتدادا لعصر ما قبل الإسلام من حيث الجانب الانطباعي التأثري .

– الاعتماد على الفطرة السليمة والسليقة والذوق الذاتي في إصدار الاحكام النقدية.

– تشجيع مذهب الصدق ونشر الفضائي ، ونبذ الخصومات ، ومحاربة الرذائل .

– ظل المنطلق النقدي الغالب هو الاعتبارات الذوقية الذاتية.

– التعبير عن الاستحسان أو الاستهجان مع قلة التعليل النقدي.

– التأثر بالبيئة الدينية الجديدة بمجيء الإسلام .

– الارتكاز في الغالب على معيار القيم والمبادئ الإسلامية .

– ساير النقد بعص التغير والتنوع في الموضوعات و المضامين التي تتلاءم مع البيئة و المجتمع وتعاليم الدين .

– التركيز على شعر المدح وشعر الهجاء أكثر من سائر الأغراض الاخرى .

– اندرج النقد ضمن مبادئ الإسلام وتعاليمه و آدابه التي جاء بها ، فأخذ طابع الدعوة .

– الجنوح نحو الوضوح وجودة الصياغة لما لها من أثر في ايصال المعنى .

- عقد المقارنات والموازنات بين الشعراء والقصائد .

ثالثا–نماذج نقدية من العصر الأموي :

يطلق العصر الأموي على الفترة التي تبدأ بخلافة معاوية سنة 41 هـ ، وتنتهي بغلبة العباسيين على بني أمية وانتزاعهم الخلافة منهم سنة 132 هـ .

لقد شهد النقد في العصر الأموي ازدهارا كبيرا ، حيث خطا خطوات بارزة نحو التطور والارتقاء ، وهذا بسبب وجود مجموعة من العوامل التي ساعدت على ازدهار النقد ، ومنها استقرار العرب في الأقطار المفتوحة وتأثرهم بالحضارات الأجنبية ، واهتمام الخلفاء الأمويين بالشعر والنقد وممارستهم له وتشجيعهم عليه ، وخاصة في بلاد الشام مقر الخلافة الأموية ، كما أن الصراع السياسي الذي اشتعلت نيراه في ذلك العصر كان عاملا من العوامل التي أذكت روح الادب و أثرت في موصوعاته وأدت إلى بروز حركة نقدية متطورة .

هذا بالإضافة إلى عامل آخر لا يقل أهمية عن العوامل السابقة وهو بروز العصبية القبلية بشكل واضح ، مما قوى الخصومة بين الشعراء و أشعل بينهم نيران الهجاء ، كما أدى سوق المربد دورا كبيرا في تنشيط حركة الشعر والنقد في العراق في ذلك العصر ، والذي كانت أهميته لا تقل عن أهمية سوق عكاظ في الجاهلية .

وقد نما النقد في العصر الأموي وازدهر في بيئات ثلاث هي : الحجاز والعراق والشام ، وقد تلون في كل بيئة بلون الحياة والظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بكل بيئة ، لأن الأدب انعكاس للواقع ، وباختلاف ظروف كل بيئة اختلف الشعر ، فأدى ذلك إلى اختلاف النقد بين هذه البئات.

1– النقد في مدرسة الحجاز :

وهي مدرسة الغزل وكان النقد فيها مطبوعاً بطابع الذوق الفني والرقة، والروح الإنسانية ، تبعاً لأدب هذه البيئة الذي شاع فيه ما شاع فيها من رقة وخفة وظرف، وتذوق رفيع للجمال وأساليب القول .

يقول الأستاذ أحمد أمين وهو بصدد حديثه عن الحجاز في العصر الأموي أنه نشأ فيه أدب رقيق يتفق وروح العصر، فيه دعابة وفيه وصف للنساء صريح، وفيه قصص لأحداث الشعراء مع النساء ،هذا الأدب الجديد في هذه البيئة اللاهية استتبع كذلك رقياً في النقد يدل على رقي في الذوق ،والنقد في هذه المدرسة غالبا ما اتجه إلى المعاني التي وعاها النص، والتي كان الناقد يعرضها على ذوقه الحضري، فيقبل منها ما يراه موائما لهذا الذوق، وما هو أليق لعاطفة الحب وأنسب لفن الغزل.

وقد اشتهر نقد أصحاب هذه المدرسة بنقد الذواقين تارة وبنقد الشعراء تارة أخرى، والمراد بالذواقين جماعة النقاد الذين اشتهروا بتذوق الشعر وتدارسه وتقويمه وإبداء رأي فيه وإن لم ينظموه ويتفرغوا له، والمراد بنقد الشعراء جماعة النقاد الذين نقدوا الشعر وهم شعراء وصدر نقدهم عن تجربة شعورية، وجمع نقدهم بين النظرية والتطبيق، ومن أشهر النقاد الذواقين في هذه المدرسة ابن أبي عتيق .

أما عن ابن أبي عتيق فقد كان له تميز ظاهر بين نقاد العصر الأموي، فإذا ما كانت الكثرة الغالبة منهم تنقد الشعر حين تتاح لهم فرصة نقده فقد كان ابن أبي عتيق يخلق هذه الفرصة ويعطي الشعر ونقده نفسه ووقعته ما قد يتيح لقائل أن يقول: إنه جعل ذلك شغله، وتكلم فيه بما يصلح أن يكون أسسا وأصولا ومقاييس في نقد الأدب.

فمثلا نراه يقدم عمرو بن أبي ربيعة ويؤثر شعره ، ويفضله على غيره من شعراء مذهبه الغزلي، ويقول "لشعر ابن أبي ربيعة نوطة بالقلب ، وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر غيره . وما عصى الله جل ذكره بشعر أكثر مما عصى بشعر عمرو بن أبي ربيعة، فخذ عني ما أصف لك : أشعر الناس من دق معناه ، ولطف مدخله ، وسهل مخرجه ، ومتن حشوه ، وتعطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن حاجته.

فهذا لون من الملاحظات النقدية والمقاييس الأدبية التي رآها وعرضها ابن أبي عتيق للشعر الجيد والشاعر البارع ، وهي مقاييس هامة، تكشف عن تطور الوعي النقدي وتقدمه ، وقد صار لها شأنها في مجال النقد ، وكانت درجة أرقى عليها النقد الأدبي في طريق الموضوعية والأسس العلمية.

وأهم الأصول النقدية التي ينبغي مراعاتها في صناعة الشعر ونقده في كلام ابن عتيق السابق هي :

– أثر الشعر في النفوس وتأثيره في القلوب وعلوقه بها وإدراك الحاجة به .

– الشعر الجيد ما أثر في نفس سامعيه حتى يحسوا بما أحس به صاحبه .

– الشاعر المجيد هو من ينقل مشاعره الى غيره نقلاً أميناً عن طريق افتتانه في تصوير عواطفه وتفننه في إبداع تجربته.

– مخالفة شعر ابن أبي ربيعة لمبادئ الدين والخلق لم تقلل من جماله الفني باعتباره شعراً تجمعت فيه خصائص الشعر الجيد – فيما رآه .

– أبان الناقد في الجزء الأخير من النص عن المقاييس الفنية التي يحتكم إليها عند المفاضلة بين الشعراء وهي فيما رأى:

دقة المعنى ، ورقة اللفظ ولطفه ، وسهولة المخرج بمعنى : حسن التخلص في الانتقال من غرض الى غرض ومتانة الحشو أي : ترابط النص وتماسك أجزائه . وهذه المقاييس النقدية لا يستهان بها في مثل ذلك العصر .

فالرؤية النقدية للشعر عند أبي عتيق فن مبعثه ومنبته الذوق، غايته التكيف مع العمل الفني وإدراك معطياته الحضارية والجمالية، وهي فن المتعة والتذوق والتأثير، وهذا أسمى ما وصل إليه النقد الحديث.

وبهذا يكون قول ابن أبي عتيق قد شمل العمل الفني من جوانبه حيث ألمح إلى الجانب النفسي في شقه الأول ، وأدرك الجوانب الحيوية للعمل في شقه الثاني، وقد روي أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية نصيب وراوية كثير وراوية جميل وراوية الأحوص، فادعى كل منهم أن صاحبه أشعر.

ومن النقاد الشعراء الذين جمعوا بين قول الشعر وتذوقه كثير وهو من أصحاب الغزل العفيف في بدو الحجاز ، وقداجتمع بعمر بن أبي ربيعة شاعر مكة الحضري، من أصحاب الغزل المادي الصريح، ووجه إليه النقد على قوله:

قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطواف في عمر

قومي تصدي له لأبصره ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها: قم غمزته فأبى ثم اسبطرت تشد في أثري

يوجه كثير النقد لعمر بن أبي ربيعة على هذه الأبيات قائلاً:

(أهكذا يقال للمرأة؟ إنما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة).

وذوق كثير الذي تربى على الشعر العربي، وعلى الغزل العربي، وعرف ما تستحسنه العرب في المرأة وما تستقبحه ، وما ينبغي أن توصف به الحرة هو الذي حمله على هذا النقد، ما يزال ذوق العربي حتى عصرنا الحاضر يستحسن أن توصف المرأة بالحياة والإباء والخجل والامتناع، ولا يستسيغ أن تكون المرأة طالبة تغازل الرجل وتنشط في التصدي له، أما هو فيأبى ويجري أمامها.

وكثير فيما عابه على عمر بن أبي ربيعة يعتمد على ذوق العربي الذي يأبى أن تصور المرأة إلا متسمة بالحياء والتمتع وما إلى ذلك من صفات المثالية.

2- **النقد في مدرسة الشام :**

وهي مدرسة المدح ، وحوله قامت حركة نقدية في قصور الخلفاء وأنديتهم، كتلك التي قامت في الحجاز حول الغزل، والنقد هنا كما في الحجاز يعتمد على الذوق الفطري المصقول بطول النظر في الشعر، واستيعاب نماذجه، وتمثل طرائق العرب في التعبير والتصوير .

والنقد في هذه المدرسة غالباً ما اتجه الى تقييم الحركة الشعرية على ضوء اقترابها وابتعادها عن القيم الفنية الموروثة وبخاصة في شعر المدح .

وبهذا كان النقد ينحو منحى اتباعياً تأثرياً ، حيث جنح النقاد في كثير من نظراتهم النقدية أو لمحاتهم الذوقية التي أبدوها، إلى مدى ما ظفر به البيت أو الأبيات من اتباع للنماذج القديمة من حيث إصابة المعنى ودقة الوصف والتعبير عن الغرض.

وكان الخلفاء أنفسهم هم عمد هذه المدرسة ، وكان عبد الملك بن مروان على رأس خلفاء بني أمية في مجال النقد والمناقشة، وكان صاحب ذوق أدبي راق يقصده الشعراء بمدحهم فيدقق في معاني شعرهم بذوقه اللطيف وحسه الرهيف، الذي كان ينفذ الى أعماق النص يكشف عن جماله أو يبين رداءته.

ومن صور نقده ما رواه صاحب الموشح من أن الراعي النميري أنشده قصيدته التي منها قوله:

أ خليفة الرحمان إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا

فقال عبد الملك " ليس هذا شرح إسلام وقراءة آية".

ويفيد هذا التعليق أن عبد الملك لم يقبل من الشعر ما كان تقديراً لمسائل دينية أو خلقية فليس هذا وظيفة الشعر، وإنما هو: شعور وإحساس يعبر عنهما في بيان جميل ونغم بديع وتصوير مفتن، أما ما قاله الراعي فليس شعراً، لأنه لا عاطفة فيه ولا شعور وإنما هو تقرير لحقائق يعرفها العامة.

ومنها أن كثير أنشده مادحاً قوله:

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة أجاد السدى سردها وأذالها

يئود ضعيف القوم حمل قتيرها ويستنضلع القرم الأشم احتمالها.

فقال عبد الملك: قول الأعشى لقيس بن معد يكرب أحب الي من قولك، إذ يقول:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة شهباء يخشى الزائدون نهالها

كنت المقدمة غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها

فقال: يا أمير المؤمنين: وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير، ووصفتك بالحزم والعزم، فأرضاه.

ومن الواضح أن كثيراً وصف عبد الملك بن مروان بأنه يحتاط لنفسه في الحرب بدليل أنه يلبس درعا حصينة محكمة الصنع يثقل حملها على الضعيف، والاحتياط من صفات ذوي الحزم والعزم والعقل وبعد النظر.

غير أن عبد الملك بن مروان –ولابد أنه لحزمه وعزمه وبعد نظره كان يدخل المعركة محتاطا لها– لا يرضى بهذا الوصف الذي يطابق واقعه، وإنما يريد من الشاعر أن يبالغ في شجاعته فيصوره محاربا باسلاً يتقدم جنوده، ويتحدى أعداءه ، غير حذر ولا محتاط إذ لا يرتدي درع الوقاية، ولا يتخفى عن القوم بل يعلمهم بمكانه ويمض يجندل الأبطال من أعدائه .

ومنها ما أورده صاحب الأمالي من أن كثير عزة دخل على عبد الملك بن مروان فقال له، أأنت كثير عزة؟ فقال: نعم، قال أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال: يا أمير المؤمنين، كل عند محله رحب الفناء، شامخ البناء، عالي السناء، ثم أنشأ يقول:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

ويعجبك الطرير إذا تراه فيخلف ظنك الرجل الطرير

بغاث الطير أطولها رقاباً ولم تطل البزاة ولا الصقور

خشاش الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور

ضعاف الأسد أكثرها زئيراً وأصرمها اللواتي لا تزير

فقال عبد الملك: " لله دره، ما أفصح لسانه، وأضبط جنانه، وأطول عنانه، والله إني لأظنه كما وصف نفسه".

وإعجاب عبد الملك بأبيات كثير مرده إلى فصاحة الشاعر في تصوير معانيه وصدقه في وصف هذه المعاني وصفاً قوامه ترتيب الفكر وإجادة التعبير عنه.

ومنها ما روي أنه كان ذات ليلة في سمره مع أهل بيته وخاصته، فقال لهم: ليقل كل واحد منكم أحسن ما قيل في الشعر، وليفضل من رأى تفضيله فأنشدوه وفضلوا، فقال بعضهم: امرؤ القيس، وقال بعضهم، النابغة، وقال بعضهم: الأعشى، كلما فرغوا قال: أشعر هؤلاء والله عندي الذي يقول: ثم أنشد شعراً لمعن بن أوس من القصيدة التي مطلعها:

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمي عنه وهو ليس له حلم

يحاول رغمي لا يحاول غيره وكالموت عندي أن يحل به الرغم

فإن أعف عينا على قدي وليس له بالصفح عن ذنبه علم

صبرت على ما كان بيني وبينه وما تستوي حرب الأقارب والسلم

فهذه النماذج التي سقناها لعبد الملك بن مروان تدل على أنه كان أديبا ناقداً عالماً بما قاله الشعراء في المعاني المتنوعة قديماً وحديثاً، ذا بصر بمسالك الشعراء و طرائفهم في المدح، يعتمد على الذوق في إدراك أسرار الجمال ومعرفة مواطنه، وبهذا كان نقده نقد عليم بالأدب، خبير بأحوال النفوس، قادر على التعمق في فهم الشعر وتذوقه.

3- النقد في مدرسة العراق :

الشعر في هذه المدرسة يشابه الشعر الجاهلي في موضوعه وفحولته وأسلوبه، فالفخر بالأصول والعصبيات والصراع بين الشعراء خلف لنا شعر النقائض والأراجيز، واحتذاء النمط الجاهلي خلف لنا نوعاً من النقد يفاضل بين الشعراء ويوازن بين الأعمال الشعرية، ويميز بين طرائق التعبير على أساس من فحولة الأسلوب... ونمو الحركات السياسية، خلف لنا نوعاً من الشعر الذي يرفض التوجه للأمراء والتمسح بالملوك واستجداء المال بالمدح- كما في الشعر الخارجي- نمت الى جواره حركة نقدية مالت إلى تقييم الشعر على ضوء التزامه بالقيم الدينية والخلقية .

ولا ننسى أن بيئة العراق بيئة علمية ثقافية امتزجت فيها الأصول العربية والأصول الأجنبية ولذلك تأثرت هذه المدرسة بالمنهج العلمي الذي اعتمد فيه نقادها غالباً على قواعد النحو وأصول اللغة، ويقيسون الأدب بمقاييسها، ويحاولون أن يخضعوا الشعراء لها.

تلك هي مدرسة اللغويين في العراق التي غلب عليها الطابع اللغوي والنحوي، وإن لم تهمل الجوانب المعنوية والتعبيرية الأخرى.

ولم يكن هؤلاء العلماء النقاد من اللغويين والنحويين، على درجة واحدة في التزام المقياس العلمي، فالحق أن منهم من كان نقده يقوم أساسا على الأصول المقررة في اللغة والنحو والعروض، ومنهم من يميل الى الأصول الأدبية الفنية في التعبير والتصوير.

وهؤلاء العلماء قد أفادوا النقد الأدبي من جهات ثلاثة:

الأولى: إنه كانت لهم آراؤهم القيمة في نقد الشعر والحكم على الشعراء حكما يستند على بعض الأصول والأسس الموضوعية .

والثانية: إنهم جمعوا كل ما قاله الأدباء والنقاد قبلهم في الشعر والشعراء.

والثالثة: إنه يعزى إلى هؤلاء الفضل في رواية الخصومات التي قامت حول كبار الشعراء – فيما بعد– وذكر الحجج التي كان يوردها أنصار كل شاعر في تفضيله .

والنقد في هذه المدرسة قد اتجه اتجاهاً لغوياً، فاتجه إلى اللفظ من وجهته الإعرابية، ومن جهة الأوزان والقوافي، وتعمقوا كذلك فنقدوه من ناحية الصياغة والصناعة والثقافة، ثم زاد التعمق والفهم للشعر والشعراء فكان التذوق والمتعة ولذة الموسيقى والإحساس بألوان من الصياغة منها ما هو رقيق سهل، ومنها ما هو صعب متلو، وعرفوا أنواع المعاني الصائبة الفاسدة.

ومن أشعر نقاد هذه المدرسة : أبو عمرو بن العلاء والحضرمي وعنبسة الفيل، وحماد الراوية، وخلف الأحمر، والأصمعي، وأبو عبيدة والمفضل الضبي وغيرهم مما سنذكرهم أثناء النماذج التالية.

روى صاحب الموشح: أن عيسى بن عمر أخذ على النابغة الذبياني تورطه في قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

حيث قال: صحته (ناقعاً) بالنصب على الحال.

ومثله تخطئة أبي عمرو بن العلاء ابن قيس الرقيات في بيته:

تبكيكم أسماء معولة وتقول ليلى وارزيئتيه

بقوله: كان ينبغي أن يقول: وارزيتاه، كما تقول: واعماه واخياه.

وكان أبو عبدالله الحضرمي النحوي شديد التعقب لشعر الفرزدق فنقده في بيته:

وعض زمان يا بن مروان لم يدع من الناس إلا مسحتا أو مجلف

بأنه عطف المرفوع وهو "مجلف" على المنصوب (مسحتا) .

وهذه النماذج ومثلها كثير في تراب النقاد والعلماء في ذلك العصر، قد انصبت على قواعد الإعراب في الأبيات، حيث عاتب فيها ما خرج على أصول تلك القواعد، التي وضعها العلماء بعد استقرائهم كلام العرب الخلص، وهو نقد نحوي، ويتمثل في تخطئة الشعراء في قواعد الإعراب.

ومما يتصل بنقد العلماء في ذلك العصر تناولهم الشعر من ناحية عناصر الشعر ومن ذلك: ما لاحظه يونس بن يونس بن حبيب من كثرة الإقواء في شعر جرير كقوله:

عرين من عرينة ليس منا برئت إلى عرينة من عرين

عرفنا جعفرا وبني عبيد وأنكرنا زعائف آخرين

فالنون " في عرين " مكسورة، وقد كسر من أجلها نون (آخرين) لمناسبة حركة الروي وصحتها الفتح.

ولم يتوقف نقد أصحاب هذه المدرسة عند الأصول الفنية التي تتصل بالنحو واللغة والعروض، بل تعداه الى الأصول الفنية التي تتصل بالأدب، ونورد نماذج من نقدهم يتبين من خلالها نظرتهم الى الأصول الفنية.

ذكر صاحب الموشح بسنده أن الأصمعي قال: قرأت على خلف شعر جرير– فلما بلغت قوله:

ويوم كأبهام القصاة محبب الى هواه غالب لي باطله

به الصيد الغرير ولم تكن كمن نبله محرومة وحبائله

فيالك يوماً خيره قبل شره تغيب واشيه وأقصر عاذله

فقال: ويله: وما ينفعه خبر يؤول الى شر؟ قلت له هكذا قرأته على أبي عمرو، فقال لي: صدقت وكذا قال جرير، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع، فقلت، فكيف يجب أن تقول؟ قال: الأجود له لو قال: فيالك يوما خيره دون شره، فأورده هكذا، فقد كانت الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء، فقلت: والله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا".

فنقد خلف بيت جرير تناول عنصرين من عناصر الشعر هما، المعنى الذي تورط فيه جرير وجانب الصواب فيه، واللفظ الذي لم يحكم جرير صنعته وسبكه وهو نقد فني دقيق.

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول في شعر ذي الرمة: "إنما شعره نقط عروس: يضمحل عن قليل، وأبعار ظباء: لها مشم في أول شمها ثم تعود الى أرواح البعر.

فقد شبه شعر ذي الرمة بنقط العروس الذي يذهب بالغسل، وبأبعار الظباء التي لها رائحة مقبولة من أثر النبت الطيب الذي تأكله، ثم لا تلبث أن تزول، أي أن شعره حلو أول ما تسمعه، فإذا كررت إنشاده ضعف، بمعنى أنه غير عميق الأثر في النفس، وإنما هو كالشيء البراق يعطي دفعة واحدة كل ماله من رواء، وقد رأى الأصمعي في شعر ذي الرمة مثل هذا الرأي في قوله" إن شعر ذي الرمة حلو أول ما نسمعه فإذا كثر إنشاده ضعف، ولم يكن له حسن.

ومن هنا نرى أن أبا العلاء يهتدي من خلال حديثه عن ذي الرمة إلى أن حلاوة اللفظ وخلابة الصورة لا تكفيان وحدهما في الحكم بالجمال للشعر، بل لابد من أن تكمن فيه عناصر ذاتية يبقى بها جديدا على طول الإنشاد، وبهذا يجمع بين الشكل والمضمون في الصورة الشعرية.

وذكر أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال: كان عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم، يعارضها ولا يجري مجاريها، والعرب لا تزوي شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية، وكان نصرانيا من عباد الحيرة قد قرأ الكتب.

وقال الأصمعي: " كان عدي لا يحسن أن ينعت الخيل، وأخذ عليه قوله في صفة الفرس" فارها متتابعاً" وقال لا يقال للفرس " فاره " إنما يقال له " جواد " وعتيق".. الخ.

فعدى في نظر الأصمعي مقصر في وصف الخيل ، وحاول الأصمعي أن يدلل على نقده بالمثل الذي ذكره من كلام عدي.

وهناك نظرات نقدية كثيرة تتسم بالدقة والعمق أثرت على الأصمعي، ومن أهمها الصلة بين الشعر وبيئته الاجتماعية وذلك حينما نظر في شعر حسان بن ثابت ، وأنه في الاسلام أضعاف منه في الجاهلية، لأن الشعر قائم على الاهواء والشر، فإذا دخل في الخير ضعف، وكأن الشعر في رأي الأصمعي صدى للحياة الاجتماعية، فالأصمعي حرص على تدعيم الصلة بين شعر حسان والحياة الاجتماعية في عهديه .

رابعا – النقد في العصر العباسي :

وصلت الحياة الفكرية في العصر العباسي إلى ذروة التطور والإزدهار، ولاسيما في العلوم و الآداب، وقد عرف العصر حركات ثقافية مهمة وتيارات فكرية بفضل التداخل بين الأمم، وكان لنقل التراث اليوناني والفارسي والهندي، وتشجيع الخلفاء والأمراء والولاة، وإقبال العرب على الثقافات المتنوعة، أبعد الأثر في جعل الزمن العباسي عصرا ذهبيا في الحياة الفكرية.

بدأ النقد الأدبي في هذا العصر يشهد بعض التطور من حيث البناء والمنهجية ، تبعا لتطور الحياة ، واتساع دائرة انتشار الثقافة ، وتهذب الذوق والطبع ، فصارت الأحكام النقدية تصدر عن " ذوق تدعمه المعارف وتغذيه الثقافات ، والنهوض بهذا الفن الجميل والسير به قدما نحو التكوين والتكامل " .

وفي هذا العهد اتجه النقد الأدبي إلى ثلاث اتجاهات بارزة هي :

1–اتجاه عربي صرف لم تمازجه ثقافات وافدة أو تؤثر فيه عوامل دخيلة، وقد تمثل هذا الاتجاه عند جماعة اللغويين والنحاة كالخليل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء والنضر بن شميل والكسائي والأخفش وابن الأعرابي والمبرد ومن على شاكلتهم ممن كانت لهم دراية باللغة وأصولها والشعر وروايته، وصور هذا النقد مبثوثة في ثنايا كتب الأدب والنقد الأولي كالأغاني لأبي الفرج والموشح للمرزباني والشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات ابن المعتز وغيرها، كما تمثل هذا الاتجاه عند بعض النقاد الأوائل الذين عالجوا النقد حسب ما انتهى إليه علمهم في مصنفات مستقلة، رتبوا فيها الشعراء الى طبقات كما فعل ابن سلام، أو تناولوا فيها الحديث عن الشعراء وأخبارهم ومنزلتهم كما فعل ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء.

1– اتجاه عربي اعتمد على الطبع والذوق ثم دعمته الثقافات المنوعة التي نهضت به و غذته وكانت له وافداً قوياً، ولكنها لم تقض على أصالته وسمات عروبته، وهو ما نلحظه عند الآمدي في موازنته، وعند القاضي الجرجاني في وساطته، وذلك في باب نقد الشعر، وعند

رجل كالجاحظ في جمال نقد النثر. وقد اتسم نقد هؤلاء باستقصاء البحث وشمول الفكرة وتوضح العلة والموازنة بين الشعراء.

2- اتجاه تأثر فيه أصحابه بالتيارات الثقافية الأجنبية شكلاً وموضوعاً حيث خضع النقد فيه لسلطان المنطق والفلسفة وغلب فيه العقل على الذوق والفكر على الحس، وقد تمثل هذا الاتجاه عند قدامة ابن جعفر في كتابه –نقد الشعر– الذي كان تأثره فيه بمنطق اليونان واضحاً.

ولم يرتكز النقد في العصر العباسي كثيرا على الذوق الفطري، بل أخذ ينتفع بكل ما أتت به النهضة العلمية في مستهل ذلك العصر ،وبدأ يعتمد على قواعد و أصول ثابتة وواضحة .

وقد ظهر نوع جديد من النقد في هذا العصر وهو النقد البلاغي الذي يعتمد على البلاغة وفنونها ، ونجد أن المعتزلة لهم فضل كبير في نشوء هذا اللون من النقد .

ولعل خير ما أثر عن المعتزلة في مجال النقد البلاغي حتى أوائل القرن الثالث صحيفة بشر بن المعتمر ، والتي أوردها الجاحظ في البيان والتبين كاملة ، وهي تتضمن نصائح عامة للكتاب تتعلق بالكتابة ، وتحتوي على ما يشترط لهذه الكتابة من توفر الطبع وتخير الوقت والبعد عن التوعر في اللفظ وتجنب الحوشي والتعقيد في الكلام .

ومنذ مجيء عصر التأليف بحلول القرن الثالث الهجري ، خطا النقد العربي خطوات عملاقة نحو التطور ، بظهور عدة مؤلفات منها : "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي ، و "البيان والتبيين" و "الحيوان" للجاحظ ، و" الشعر والشعراء "و "أدب الكاتب " لابن قتيبة ، والذي تناول قضايا نقدية كالإنتحال واللفظ والمعنى والمفاضلة بين الشعراء.

وظهر في القرن الرابع "عيار الشعر" لابن طباطبا ، و"نقد الشعر" لقدامة بن جعفر ، وا"لموازنة" للآمدي ، و"الوساطة" للقاضي الجرجاني ، وفي القرن الخامس ظهر "دلائل الاعجاز" لعبد

القاهر الجرجاني، وبفضل هذه المصنفات صار للنقد أسس ومناهج متبعة ، و أصبح للموازنة قواعد ، وظهر النقد البلاغي .

ونعرض هنا بعضا من النماذج النقدية في النقد المنهجي :

- نماذج من الموازنة للآمدي :

قال أبو تمام في معنى الشوق :

يكفيك شوق قد يطيل ظماءه فإذا سقاه سقاه سم الأسود

يعلق الآمدي على معنى البيت بقوله :" شوق قد يطيل ظماءه غلط ، لأن الشوق هو الظمأ نفسه ، إنك تقول : أنا عطشان إلى رؤيتك ، وظمآن ، مشتاق ، بمعنى واحد ، فكيف يكون الشوق هو المطيل للظمإ ؟ وكيف يكون هو الساقي ، والمحبوب هو الذي يظمئ ويسقي ، أو البعد أو الهجر لا الشوق . فكيف يكون الشوق يطيل شوقه ؟ " .

" قال أبو تمام :

لَمَّا اسْتَحَرَّ الوَدَاعُ المَحْضُ وانْصَرَمَتْ أَوَاخِرُ الصَّبْرِ إلاَّ كَاظماً وَجِمَا

رأيت أَحْســــــــنَ مَرْئِيّ وأَقْبَحَهُ مستجمعين لي التوديع والعنما

يقول الآمدي : استحسن من المحبوبة إصبعها الذي يشبه العنم في الاحمرار ، واستقبح إشارتها له بالوداع ، واشارة المحبوبة بالوداع لا يستقبحه إلا أجهل الناس بالحب ، وأقلهم معرفة بالغزل ، و أغلظهم طبعا ، و أبعدهم فهما ، ألم يسمع قول جرير :

تنسى إذ تودعنا سليمى بفرع بشامة سقى البشام ؟

فدعا للبشام بالسقيا لأنها ودعته به ، فسر بتوديعها " .

"قال أبو تمام :

لا تَسقِني ماءَ المُلامِ فَإِنَّني صَبٌّ قَدِ اِستَعذَبتُ ماءَ بُكائي

وقد عابه النقاد لقبح الإستعارة في جعله للملام ماء ، ولكن الآمدي يرى عكس ذلك فيقول : وهذا ليس بعيب عندي ، لأنه لما أراد أن يقول : قد استعذبت ماء بكائي ، جعل للملام ماء ليقابل ماء بماء (مشاكلة)كقوله تعالى : ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ ، فالثانية ليست بسئة ، وإنما هي جزاء عن سيئة،وكذلك : ﴿**إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم** ﴾ ، والفعل الثاني ليس بسخرية ، ومثل هذا في الشعر والكلام كثير مستعجل ".

أما النقد في بلاد المغرب العربي والأندلس ، فقد ظهر في عمومه متأثرا بنقد المشرق ، وتجلى ذلك في بروز عدة مؤلفات على نحو "العقد الفريد" لابن عبد ربه ، و "العمدة " لابن رشيق ، ثم توالت المصنفات في الظهور حتى ظهرت "مقدمة ابن خلدون"، "وبفضل هؤلاد النقاد صار النقد علما له قواعده و أصوله".

وهكذا استعرضنا لأهم الفترات التاريخية التي مربها النقد الأدبي ، والمقصود بتلك الفترات المراحل التي سبقت ابن سلام صاحب كتاب " الطبقات" الذي يعد أول كتاب كتب في النقد ، وهي فترة وجيزة وجد فيها النقد الأدبي هينا يسيرا لا يستند لأي علم ، يعتمد على الذوق والشعور والانطباع والتأثر، خال من التعليل والتعمق في الحكم ، ونحن إذا جعلنا هذا الكتاب في أول دراسة النقد التاريخي ذلك أن معظم النقاد المحدثين يعدون هذا المؤلف كتابا تاريخيا ، وعلى رأسهم محمد مندور صاحب كتاب النقد المنهجي عند العرب ، يقول مندور :" إذا كان النقد قد أخذ يستخدم علوم اللغة المختلفة لتوضيح أحكامه و تعليلها ، وذلك عندما تكونت تلك العلوم ، فهو بدوره قد اتخذ أساسه الجوهري في أول كتاب ألف في تاريخ الأدب العربي وهو طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت 232هـ) ، وذلك لما هو واضح في منهج تبويبه للأدب من اتخاذ أحكام النقد فيصلا في النهاية ".